الفصل الأول

الخلافة

● التحليل اللّفظى :

« خلف » ضد قُدّام ، وَخَلفَ الشىء : تركه وراءه [1] .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ، وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [2] .

و « تخلّف » بمعنى تأخر [3] ، كقولك : تخلّف فلان عن فلان .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُواْ عَنْ رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [4] .

وخلف فلان فلاناً - بتحريك اللام وسكونها - أى حل محله وقام مقامه إما بعده كالوارث والموروث ، والجيل بعد الجيل ، والقرن بعد القرن ...

وإما معه أى يحل محله ، ويقوم مقامه - وهو موجود - فى

---

(١) ابن منظور : لسان العرب المحيط ، إعداد وتصنيف يوسف خياط . دار لسان العرب ، بيروت ، جـ ١ ، ص ٨٨٢

الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٥

(٢) فصلت : ٤١ - ٤٢

(٣) ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣

الفيروز آبادى : القاموس المحيط (مرجع سابق) جـ ٣ ص ١٣٨

(٤) التوبة : ١٢٠

تصريف أموره معه ، أو بتفويضه نيابة عنه ، كالوكيل والموكل ... [1] .

وقيل إن « خلف » بتحريك اللام تكون فى الخير ، فتقول : خلفُ صدق ، وفى السكون تكون للشر : فتقول : خَلْفُ سوء .... وهو خلاف مشهور عند اللُّغويين [2] .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلاَئِكَةً فِى الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴾[3].

وقال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً ﴾ [4] .

و « أخلف » بمعنى عوّض وأبدل [5] ، فإذا ذهب له ما يخلفه عادة كالمال والولد مما يمكن إبداله وتعويضه بمثله قيل له : أخلفَ اللّهُ عليك ، ولك . أما إذا ذهب له ما لا يخلفه غالباً كالأب والأم فيقال له : خَلَفَ اللّهُ عليك [6] .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [7] .

وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [8] .

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٥ - ١٥٦
أيوب بن موسى الحسينى : الكليات . منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومى بسوريا ، ١٩٨٢ م ، جـ ٢ ص ٣٠٠
أحمد رضا : معجم متن اللُّغة ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٧٧ هـ (١٩٥٨ م) جـ ٢ ص ٣٢٢

(٢) ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣
ابن الأثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر ، تحقيق محمود محمد الطناحى وطاهر أحمد الزاوى . المكتبة الإسلامية ، ط ١ ، ١٣٨٢ هـ ، جـ ٢ ص ٦٥ - ٦٦

(٣) الزخرف : ٦٠ (٤) مريم : ٥٩

(٥) مجمع اللُّغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم (مرجع سابق) ص ١٨٣

(٦) ابن الأثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٦٦
الفيروز آبادى : القاموس المحيط (مرجع سابق) جـ ٣ ص ١٣٨

(٧) سبأ : ٣٩ (٨) آل عمران : ٩

و « اختلف » ضد اتفق ، والاختلاف والمخالفة أعم من الضد ، فليس كل مختلفين ضدين ، وإن كان كل ضدين مختلفين [١] .

قال تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ... ﴾ [٣] .

و « اختلف » بمعنى التبس [٤] .

قال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَاذِبِينَ ﴾ [٥] .

ونكتفي بهذا القدر من التحليل اللفظي ، لأن ما يهمنا في هذا الباب من مادة « خلف » المعنيين التاليين :

(أ) أن يخلف المستخلِف خليفة في مكانه بعده ، دون أن يكون للمستخلف أي قوامة على خليفته كالوارث والموروث والجيل بعد الجيل ، والرئيس بعد الرئيس ، والوكيل بعد الوكيل ... [٦] .

---

(١) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٦
أيوب بن موسى الحسيني الكفوي : الكليات (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٢٩٩
ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣
(٢) الزمر : ٤٦ (٣) البقرة : ٢١٣
(٤) أيوب بن موسى الحسيني : الكليات (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٣٠١
مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم (مرجع سابق) ص ١٨٤
(٥) النحل : ٣٨ - ٣٩
(٦) ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣

وبذلك يكون المعنى المقصود بـ « خلف » خلف غيره بعده [١] .

قال تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ﴾ [٢] .

(ب) أن يخلف المستخلِف خليفة فى مكانه ، أو فى عمله معه ، أو بتفويضه نيابة عنه [٣] وللمستخلف حق القوامة عليه ، فمتى حدث منه تقصير فى مهمته التى أسندت إليه ، أو تم الاستغناء عنه ، فإن للمستخلِف حق عزل خليفته .

ولذلك لا يلزم من الخلافة موت المستخلف له كالوكيل والموكل ، والنائب والمنوب عنه [٤] .

وبذلك يكون المعنى المقصود بـ « خلف » غيره معه أو بتفويضه .

وإن هذين المعنيين يتحققان ويتطابقان فى آن واحد [٥] كقولك : استخلفتك بعد زيد ، أى جعلتك خليفة لى مكان زيد ، فيخلف المخاطب زيداً ويحل محله ، كما أن المخاطب يكون خليفة للمتكلم .

* * *

● المقصود بالخلافة فى القرآن الكريم :

لقد ورد فى القرآن الكريم لفظ « خليفة » مرتين ، ولفظ « خلفاء » ثلاث مرات ، ولفظ « خلائف » أربع مرات ، ولفظ « استخلف » مرة واحدة ،

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٥ - ١٥٦
الفيروز آبادى : القاموس المحيط (مرجع سابق) جـ ٣ ص ١٣٧

(٢) الأعراف : ١٦٩

(٣) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٥
ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص٨٨٣

(٤) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٦
أيوب بن موسى الحسينى : الكليات (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٢٩٩

(٥) أبو الأعلى المودودى : الحكومة الإسلامية (مرجع سابق) ص ٧٩

ولفظ « يستخلف » أربع مرات ، ولفظ « مستخلفين » مرة واحدة [١] .

و « خليفة » على وزن « فعيلة » ، وتُجمع على التأنيث « خلائف » ككرائم وصحائف ، لأن وزن « فعيلة » لا تُجمع على « فعلاء » ، ولكن « خليفة » جُمِعت على «خلفاء» ، لأن اللّفظ مذكر المعنى و« خلفاء » جمع «خليف» [٢] .

والتاء فى « خليفة » للمبالغة فى الدلالة على عظم حاله وأوصافه ، وأنه الغاية فى ذلك كعلاّمة [٣] .

وقيل « خليفة » على وزن « فعيلة » بمعنى « مفعول » كقتيل بمعنى مقتول ، فخليفة بمعنى مخلوف أى يخلفه مَن كان بعده وقيل « خليفة » على وزن « فعيلة » بمعنى « فاعل » أى يخلف ما كان قبله [٤] .

و « خليفة » تأتى بمعنى السلطان الأعظم [٥] كالخليفة أبو بكر ، والخليفة عمر بن الخطاب ....

و « خلفه خلافة » أى كان خليفته ، فالخلافة هى « النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف » [٦] .

ونجد أن ما ينطبق على خلافة الإنسان لله تعالى فى الأرض ، أن يكون تشريفاً للخليفة من قِبَلِه تعالى .

---

(١) محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (مرجع سابق) ص ٢٤٠ - ٢٤١

(٢) ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣

ابن الأثير : النهاية فى غريب الحديث والأثر (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٦٩

(٣) أيوب بن موسى الحسينى : الكليات (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٣٠٠

(٤) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢

القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥

(٥) الفيروز آبادى : القاموس المحيط (مرجع سابق) جـ ٣ ص ١٣٧

ابن منظور : لسان العرب المحيط (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٨٣

(٦) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب فى القرآن (مرجع سابق) ص ١٥٦

ولقد اختلف العلماء فى تحديد معنى « خليفة » فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ (١) .

ولقد ترتب على هذا الاختلاف ، اختلافهم فى المراد بالخليفة والمستخلِف له .

● الخليفة :

لقد اختلف العلماء فى المراد به على أقوال وهى :

١ - بنو آدم وذريتهم :

فإن « خليفة » على وزن « فعيلة » بمعنى « فاعل » أى يخلف ما كان قبله ، وآدم عليه السلام هو أول من عمر الأرض وخلفه بعده ذريته ، ولم يخلف غيره (٢) .

ولقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

ففى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ..... ﴾ إشارة إلى من يخلفون آدم عليه السلام ، وهم ذريته الذين يُتصور منهم مثل ذلك (٤) .

---

(١) البقرة : ٣٠

(٢) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢

الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ٢ ص ١٨٠

الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١

(٣) البقرة : ٣٠

(٤) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ١ ص ٨٢

القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥

٢ - آدم عليه السلام :

فإن « خليفة » على وزن « فعيلة » بمعنى « مفعول » أى يخلفه من كان بعده من ذريته ، وهو لم يخلف غيره [١] .

كما أن آدم عليه السلام - وهو فى الملإ الأعلى - هو الذى علم مسميات الأشياء كلها ، وسجدت له الملائكة تكريماً له ، وهو الذى فاز على الملائكة فى المناظرة معهم .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ * قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ [٢] .

٣ - آدم عليه السلام وكل نبى :

فإن المراد بـ « خليفة » فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .... ﴾ [٣] . هو آدم عليه السلام ، وهو نبى .

عن أبى ذر : « ... قلتُ : يا رسول الله ؛ أى الأنبياء كان أول ؟ قال : آدم . قلت : يا رسول الله : ونبى كان ؟ قال : نعم نبى مُكَلَّمٌ ... » [٤] .

وقال تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ

---

(١) الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ٢ ص ١٨٠
الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢
القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥

(٢) البقرة : ٣١ - ٣٤ (٣) البقرة : ٣٠

(٤) رواه أحمد ، جـ ٥ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥

فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (١) .

أى جعلناك خليفة لمن كان قبلك من الأنبياء لتحكم بالحق ولا تتبع الهوى (٢).

فكل نبى هو خليفة للّه تعالى فى إجراء أحكامه ، وتنفيذ إرادته فى عمارة الأرض وسياستها ، فهم نائبون عن اللّه تعالى لا لحاجة له ، ولكن لقصور المستخلف عليه عن قبول فيضه تعالى ، وتلقى أمره سبحانه بغير وسيط (٣) .

ويكون المقصود بـ « الخليفة » السلطان الأعظم الذى تم تعيينه من قِبَلِه تعالى بالوحى إليه نبياً .

٤ - آدم عليه السلام وذُرِّيته :

فإن المراد بـ « الخليفة » هو النوع الإنسانى ، وإن كان المراد بـ « خليفة » آدم عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٤) . فإن ذلك إنما اكتفاء بذكره عليه السلام عن ذكر أبنائه وذُرِّيته ، لأن ذكره يشملهم ، ويدل عليهم كقولك : قبيلة مُضر ، أى بنو مُضر .

فإن اللّه تعالى لم يرد آدم عليه السلام وحده ، وإنما أراد النوع الإنسانى (٥) وهذا هو الراجح لما يأتى :

---

(١) سورة ص : ٢٦

(٢) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٣٧٢
البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (مرجع سابق) ص ٦٠٢
الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ٢٦ ص ١٩٩

(٣) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ٧ ص ٢٢٣
الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ٢٦ ص ١٩٩
أيوب بن موسى الحسينى : الكليات (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٣٠٠

(٤) البقرة : ٣٠

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٩
الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١
الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢

(أ) إن فى قوله تعالى : ﴿ قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ففيه ما لا يُتصور وقوعه إلا من ذُرِّيته ، وهو ما فهمته الملائكة من أن الخلافة له ولذُرِّيته (٢) .

وكذلك ما فهمه إبليس - لعنه الله - فى الملإ الأعلى .

قال تعالى : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِى إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

أما كيف فهمت الملائكة ذلك فقد اختلف العلماء فيه على أقوال وهى :

١ - إن فى الآية محذوفاً تقديره (٤) : « إنى جاعل فى الأرض خليفة يفعل كذا وكذا فقالوا : أتجعل فيها من يُفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ... » ؟.

٢ - إن ما فهمته الملائكة إنما هو من إعلام الله تعالى لهم بذلك (٥) .

٣ - إن الملائكة عرفوا ذلك من اللوح المحفوظ (٦) .

---

(١) البقرة : ٣٠.
(٢) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٩
الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١
البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (مرجع سابق) ص ٢٣
(٣) الحجر : ٣٢ - ٤٠.
(٤) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢
(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٩
(٦) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١

٤ - إن ذلك مما شاهدته وعرفته الملائكة عن طبيعة المخلوقات الأرضية كالحيوانات ، والطيور ... والتى سبقت الإنسان فى وجوده ، وأنه يشاركها فى طبيعتها [١] .

٥ - إن الملائكة قاسوا الإنسان على الجن الذين سكنوا الأرض قبله [٢] .

٦ - إن الملائكة فهموا « خليفة » بالسلطان الأعظم الذى يفصل بين الناس فى المظالم [٣] .

٧ - إن الملائكة يعلمون أنهم المعصومون ، وأن غيرهم لا يكونون بصفتهم [٤] .

وإن التأمل فى هذه الأقوال يُظهر التقارب بين الأقوال الثلاثة الأولى وهى تأتى فى الدرجة الأولى فى الترجيح ، ثم يليها القول الرابع ، ثم القول الخامس . والله أعلم .

(ب) إن عناصر وخصائص التكوين لآدم عليه السلام هى عناصر وخصائص التكوين لذُرِّيته فكل منهم يتكوَّن من الطين ونفخة الروح كما سبق .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٥] .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [٦] .

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٩

(٢) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١

(٣) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٩

(٤) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١

(٥) سورة ص : ٧١ - ٧٢ (٦) السجدة : ٧ - ٩

(جـ) إن عمارة الأرض له عليه السلام ولذُرِّيته ، وليس له وحده وكذلك التكليف ، وكذا الغاية من الوجود .

قال تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣) .

(د) إن التكريم لآدم عليه السلام فى الملإ الأعلى إنما هو تكريم للإنسان عامة ، وإن خلقه وتصويره خلق وتصوير لذريته (٤) .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ (٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (٦) .

● المستخلِف له :

وكذلك لقد اختلف العلماء فى ذلك على أقوال ، وهى :

---

(١) هود : ٦١ (٢) الأحزاب : ٧٢ (٣) الذاريات : ٥٦

(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢٦٠٤

الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٢ ص ١٩١

البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (مرجع سابق) ص ٢٣

(٥) الأعراف : ١٠ - ١١ (٦) الإسراء : ٧٠

١ - الملائكة :

فإن الخليفة يخلف الملائكة [١] الذين فى الأرض قبله ، لأنهم خُلقوا قبل آدم عليه السلام ، بدليل أن الله تعالى قد أعلن ذلك لهم قبل خلقه عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وإذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلاَئكَة إنِّى خَالقٌ بَشَراً منْ طِينٍ * فَإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فيه منْ رُّوحى فَقَعُواْ لَهُ سَاجدينَ ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلاَئكَة إنِّى جَاعلٌ فى الأرْض خَليفَةً ، قَالُواْ أتَجْعَلُ فيهَا مَنْ يُفْسدُ فيهَا وَيَسْفكُ الدِّمَاءَ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بحَمْدكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إنِّى أعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ... ﴾ [٣] .

٢ - الجن :

فإن الخليفة يخلف الجن الذين سكنوا الأرض قبله [٤] ، فإن الجن قد خُلقوا قبل آدم عليه السلام .

قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ وَالإنْسَ إلاَّ ليَعْبُدُونِ ﴾ [٥] .

فإن تقديم الجن على الإنس إنما هو لتقدم وجودهم على الإنس .

كما أن إبليس - لعنه الله - من الجن على القول الراجح ، وقد اطلع على آدم عليه السلام قبل تمام خلقه ، لأنه داخل فى الأمر فى قوله تعالى : ﴿ وَإذْ قَالَ رَبُّكَ للْمَلاَئكَة إنِّى خَالقٌ بَشَراً منْ صَلْصَالٍ منْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإذَا

---

(١) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ١ ص ٦٢
القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥
الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٧١

(٢) سورة ص : ٧١ - ٧٢ (٣) البقرة : ٣٠

(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥
الطبرى : تفسير الطبرى - تحقيق محمود محمد شاكر . دار المعارف بمصر ، جـ ١ ص ٤٥ .
الحسين بن محمد الدامغانى : قاموس القرآن (مرجع سابق) ص ١٦٢

(٥) الذاريات : ٥٦

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه منْ رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجدينَ * فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ (١) .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لما صوَّر الله آدم فى الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خُلِقَ خَلْقاً لا يتمالك » (٢) .

٣ - آدم قبل آدم عليه السلام :

وإن هذا القول يعتمد على أساطير هندية عن آدم عليه السلام وأنه كان عبداً عند سيد منهم فهرب إلى غرب الهند .

كما قال به بعض العلماء المحدَثين فى محاولة للجمع بين خلق آدم عليه السلام والجماجم التى تم اكتشافها قريبة من جماجم الإنسان الحالى (٣) . ولقد سبق مناقشتها فى الباب الأول .

كما استدلوا بأقوال بعض الشعراء ، كأبو العلاء المعرى (٤) :

جائز أن يكون آدم هذا قبله آدم على إثر آدم

ويؤكد ذلك فى قوله :

وما آدم فى مذهب العقل واحدُ ولكنه عند القياس أوادم

ولقد جاءت الإشارة فى القرآن الكريم إلى أن آدم عليه السلام خلق جديد لم يسبقه مثله .

---

(١) الحجر : ٢٨ - ٣١

(٢) رواه مسلم فى كتاب البر والصلة ، حديث ١١١ ، جـ ٤ ص ٢٠١٦

(٣) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٢٤ - ١٢٦

عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء . مؤسسة الحلبى وشركاه ، ط ٢ ، ص ١١

(٤) طه حسين : من تاريخ الأدب العربى . دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤م ، جـ ٣ ص ٦٢٣

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

كما أن هنالك « بعض الأساطير اليونانية والفارسية التى تقول بأن هنالك جنساً آخر قبل الإنسان على الأرض ، وهو ما يسمونه بـ« الطّم » و« الرّم » وبـ « التيتان » والتى تعتبر من التعبير عن غير الموجود والمجهول كالغول وهيان ابن بيان .

وكذلك ما قيل عن مخلوقات أُخرى سبقت الإنسان اسمهم « الحن » و« البن » فإنما هى من أوهام وأساطير القدماء » (٢) .

وعلى كل هذه الأقوال الثلاثة السابقة يكون لفظ « خليفة » على وزن « فعيلة » بمعنى « مفعول » أى يخلف ما كان قبله من الملائكة أو الجن أو المخلوقات أُخرى سبقته عليه السلام .

٤ - اللّه تعالى :

قال تعالى : ﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٣) .

وإذا كانت الآية لم تذكر المستخلِف له ، فإن ما يتبادر إلى ذهن السامع مباشرة ، هو أنه خليفة للّه تعالى ، وليس هنالك ما يصرفه عن هذا المعنى من آيات قرآنية أو أحاديث نبوية صحيحة .

كقولك : إنى جاعل فى الدار خليفة . فالخليفة لك لا لغيرك .

وإن الأرض مِلك للّه تعالى ، وإن ما يملكه الإنسان إنما هو تَملُّك مجازى كما سبق .

---

(١) سورة ص : ٧١ - ٧٢

(٢) محمد الطاهر بن عاشور : تفسير التحرير والتنوير . الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٨٤ ، جـ ١ ص ٣٩٩ بتصرف

(٣) البقرة : ٣٠

فقوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [١] أى خليفة له ، ومما يُقوِّى هذا الرأى ما يأتى :

(أ) إن الأقوال السابقة تريد بكلمة « خليفة » معنى : خَلَف غيره بعده ؛ أى حل محل مخلوقات أُخرى قبله دون أن يكون للمستخلِف له أى قوامة على الخليفة ، وإنما هى خلافة زمانية ومكانية .

أما جعله خليفة للّه تعالى فيُراد بكلمة « خليفة » معنى النائب أو المفوَّض [٢] ، وهو الذى حل محله فى إجراء أحكامه وتنفيذ إرادته فى عمارة الأرض [٣] ، وللمستخلِف القَوَامة على خليفته ، وإن هذه الخلافة من اللّه تعالى للإنسان فيها تشريف له ، لتلتقى إرادته مع إرادة اللّه الشرعية فى إحلال النظام فى عمارة الأرض .

(ب) أن اللّه تعالى أعلن هذه الخلافة فى الملإ الأعلى قبل ظهورها للحفاوة بالخليفة وتكريمه [٤] ، والإشارة إلى أنه ذو شأن عظيم كما تدل عليه « التاء » فى « خليفة » [٥] .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٧] .

وليس من هذا التكريم والحفاوة شىء للملائكة ، أو للجن ، أو لبَشر سبقوه .

ولا نجد حكمة لذلك إلا أن تكون خلافة عن اللّه تعالى [٨] .

---

(١) البقرة : ٣٠.

(٢) الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ٢٦ ص ١٩٩

(٣) مجمع اللُّغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم (مرجع سابق) ص ١٨٣

(٤) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٢٦ - ١٢٧

(٥) أيوب بن موسى الحسينى : الكليات (مرجع سابق) ص ٣٠٠

(٦) البقرة : ٣٠ (٧) سورة ص : ٧١ - ٧٢

(٨) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٢٧

(ج) إن من عناصر وخصائص التكوين للإنسان « الروح » والذى منحه قبس من صفاته تعالى كالإرادة ، والعلم ، والرحمة ، والعدل ... والتى يعلو بها الإنسان على المحسوسات إلى المعانى المجرّدة كالخير والشر والحق والباطل ... والتى تزدخر بها حياته الباطنية [١] ، والتى عن طريقها يمكن له إدراك ما لم تقع عليه الحواس عن طريق آثارها كما سبق .

قال تعالى : ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ،وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ ﴾ [٢] .

وإن اللّه تعالى لم يطلب من الملائكة التكريم والحفاوة بآدم عليه السلام قبل نفخ الروح فيه ، وإنما عَلّقَ ذلك بنفخ الروح فيه [٣] .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ [٤] .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « خَلَقَ اللّه آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : اذهب فسَلِّم على أُولئك النفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة اللّه ، فزادوه : ورحمة اللّه ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص بعدُ حتى الآن » [٥] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تُقَبِّح الوجه ، فإن ابن آدم خُلِقَ على صورة الرحمن تبارك وتعالى » [٦] .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣١ (٢) السجدة : ٧ - ٩

(٣) البهى الخولى : آدم عليه السلام (مرجع سابق) ص ١٢٦

(٤) سورة ص : ٧١ - ٧٢

(٥) رواه البخارى فى كتاب الاستئذان ، باب : بدء السلام ، جـ ٧ ص ١٢٥

(٦) رواه الطبرانى فى صحيحه بإسناد رجاله ثقات . انظر : =

ومن هذا الحديث السابق يترجح أن الضمير فى « صورته » فى الحديث الأول يعود إلى اللّه تعالى .

وبذلك يكون المعنى المراد - واللّه أعلم - بـ « الصورة » الصفة [1] ، وهى ما عبَّر عنها بالقبس من صفاته تعالى كالحرية والإرادة والعلم والعدل والرحمة .. والتى منحها اللّه تعالى للإنسان كما سبق .

فإن عناصر وخصائص التكوين لآدم عليه السلام هى عناصر وخصائص التكوين لذُرِّيته ، وإن التكريم له فيه تكريم لذُرِّيته ، لأن خلقه وتصويره ، هو خلق وتصوير لذُرِّيته ، فالخلافة والتكليف وصف عام للإنسان [2] .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [3] .

ولذلك فمن الأولى أن يكون من انفرد بهذه الخصوصية ، وهذا القبس من صفاته تعالى خليفة له سبحانه .

(د) إن هذه المكانة التى حظى بها الخليفة عند اللّه تعالى ، وأن كل شىء فى الأرض والكون مُسَخَّرٌ له ، وخُلِقَ من أجله ، فمن كانت هذه منزلته عند اللّه تعالى فمن الأولى أن يكون خليفة له سبحانه ، بمعنى النائب أو المفوَّض .

= ابن حجر العسقلانى : فتح البارى (مرجع سابق) جـ ٥ ص ١٨٣
نور الدين الهيثمى : مجمع الزوائد ، دار الكتب بيبروت ، ط ٢ ، ١٩٦٧ م ، جـ ٨ ص ١٠٦
ابن أبى عاصم : كتاب السنة ، ومعه ظلال الجنة فى تخريج السُّنَّة ، للألبانى ، المكتب الإسلامى بيبروت ، ط ١ ، ١٤٠٠ هـ (١٩٨٠ م) جـ ١ ص ٢٢٨ - ٢٢٩

(١) ابن حجر العسقلانى : فتح البارى (مرجع سابق) جـ ١١ ص ٣

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢٦٠٤
الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٢ ص ١٩١
البيضاوى : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (مرجع سابق) ص ٢٠٠

(٣) الأعراف : ١٠ - ١١

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدىً وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

(هـ) إن الجن والملائكة وغيرهما من المخلوقات يشاركون الإنسان فى العبودية لله تعالى ، ولكن له خصوصية الروح ، وخصوصية حمل الأمانة ، وخصوصية الخلافة كما سيأتى .

ولذلك فمن الأولى أن يكون خليفة الله تعالى بمعنى النائب أو المفوض ، لا لغيره من المخلوقات بمعنى خلف غيره بعده فى الزمان المكان .

(و) إذا لم يكن فى قوله تعالى : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾ تصريح بالمستخلِف له ، فقد جاء فى الأحاديث النبوية التصريح به .

عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يقتتل عند كنزكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قِبَلِ الشرق ، فيقتلونكم قتلاً لن يُقتله قوم » ، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه ، فقال : « فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حَبْواً على الثلج ، فإنه خليفة الله المهدى » (٣) .

---

(١) لقمان : ٢٠ (٢) الجاثية : ١٢ - ١٣

(٣) رواه ابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب : خروج المهدى ، جـ ٢ ص ١٣٦٧ ، وصححه الحاكم وابن كثير . انظر :

الحاكم : المستدرك على الصحيحين (مرجع سابق) جـ ٤ ص ٤٦٣

ابن كثير : كتاب الفتن والملاحم ، تحقيق إسماعيل الأنصارى . مؤسسة النور بالرياض ، ١٣٨٨ هـ ، جـ ١ ص ٣١

وعن ثوبان قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَن أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، هو خليفة اللّه فى الأرض ، وخليفة كتابه ، وخليفة رسوله » [١] .

وعن سبيع بن خالد قال : أتيتُ الكوفة فى زمن فتحت « تستر » أجلب منها بغالاً ، فدخلتُ المسجد فإذا صدع من الرجال ، وإذا رجل جالس ، تعرف إذا رأيته أنه من رجال أهل الحجاز ، قال : قلت : مَن هذا ؟ فتجهمنى القوم ، وقالوا : ما تعرف هذا ؟ هذا حذيفة صاحب رسول اللّه ﷺ ، فقال حذيفة : إن الناس كانوا يسألون رسول اللّه ﷺ عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر ، فأحدقه القوم بأبصارهم ، فقال : إنى قد أرى الذى تنكرون ، إنى قلت : يا رسول اللّه : أرأيتَ هذا الخير الذى أعطانا اللّه ، أيكون بعده شر ، كما كان قبله ؟ قال : نعم ، قلت : فما العصمة من ذلك ؟ قال : السيف . قلت : يا رسول اللّه : ثم ماذا ؟ قال : « إن كان للّه خليفة فى الأرض ، فضرب ظهرك وأخذ مالك ، فأطعه ، وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة ... » [٢] .

ولذلك يجب أن يكون المستخلِف له فيما لم يُصرَّح به فى الآيات القرآنية هو المستخلِف له فى هذه الأحاديث النبوية ، كما أن المقتضى اللُّغوى يقتضى ذلك ، لأنه هو الذى ينصرف إليه ذهن السامع .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [٣] أى إنى جاعل فى الأرض خليفة لى [٤] .

---

(١) السيوطى : الفتح الكبير ، نسخة مصوَّرة عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٩٥ حديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب جـ ١ ص ٧٥٦

علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى : كنز العمال ، ضبطه وفسَّر غريبه : بكرى حيانى ، وصحَّحه ووضع فهارسه : صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٩ هـ ، جـ ٣ ص ٧٥

(٢) رواه أبو داود وأحمد واللفظ لأبى داود فى كتاب الفتن ، باب ذكر الفتن ودلائله - خليل أحمد السهارنفورى : بذل المجهودفى حلل أبى داود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، جـ ١٧ ص ١٣٦ - ١٣٩ . - وصححه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين (مرجع سابق) جـ ٤ ص ٤٢٣

(٣) البقرة : ٣٠

(٤) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن (مرجع سابق) جـ ١ ص ٢٢٥

كقولك : إنى جاعل فى الدار خليفة . أى خليفة لى .

وقال تعالى : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ (١) .

أى : يا داود إنا جعلناك خليفة لنا فى الأرض (٢) .

كقولك : إنا جعلناك خليفة فى الدار . أى خليفة لنا فى الدار .

وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ، أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣) .

فـ « خلفاء » مضاف و « الأرض » مضاف إليه أى : خلفاء الأرض ذاتها ، ولذلك فالمعنى : خلفاء له فى الأرض ، بصرف النظر عما سبقوه عليها (٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥) .

فـ « خلائف » مضاف و « الأرض » مضاف إليه أى : خلائف الأرض ذاتها ، ولذلك فالمعنى : خلائف له فى الأرض (٦) بصرف النظر عما سبقوه عليها .

وقال تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ

---

(١) سورة ص : ٢٦

(٢) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٣٧٧

(٣) النمل : ٦٢

(٤) أبو الأعلى المودودى : الحكومة الإسلامية (مرجع سابق) ص ٨٠

(٥) الأنعام : ١٦٥

(٦) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٢ ص ١٨٦
الفخر الرازى : التفسير الكبير ومفاتيح الغيب (مرجع سابق) جـ ١٤ ص ١٥
أبو الأعلى المودودى : الحكومة الإسلامية (مرجع سابق) ص ٨٠

خَلائفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (١) .

أى : وجعلناهم خلائف لنا ... ولذلك تتضمن الآية أمرين وهما : الخلافة للمؤمنين ، وإغراق الذين كفروا .

وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً ، يَعْبُدُونَنِى لاَ يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ، وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٢) .

أى : يجعلهم خلفاء له فى الأرض ، كما جعل خلفاء له من قبلهم (٣) .

كقولك : استخلفتُك فى الدار كما استخلفتُ الذى من قبلك .

أى : جعلتك خليفة لى فى الدار كما جعلتُ خليفة لى الذى من قبلك .

وقال تعالى : ﴿ قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

أى : يجعلكم خلفاء له فى الأرض ، فتتضمن الآية نعمتين وهما : إهلاك عدوهم ، والخلافة عن الله تعالى فى الأرض .

وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّواْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ، إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (٥) .

أى : ويجعل خلفاء له غيركم ...

وإذا تقرَّر أن الإنسان خليفة لله تعالى ، فإن مقتضى القول فى الآيات القرآنية التى صَرَّحَ فيها بالمستخلِف له هو تطابق المعنيين لكلمة « خَلَفَ » ، وتحققهما فى آن واحد (٦) كما سبق - وهما بإيجاز :

---

(١) يونس : ٧٣ (٢) النور : ٥٥

(٣) الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٤ ص ٤٧

(٤) الأعراف : ١٢٩ (٥) هود : ٥٧

(٦) أبو الأعلى المودودى : الحكومة الإسلامية (مرجع سابق) ص ٨ .

(أ) « خَلَفَ » بمعنى خَلَفَ غيره بعده ، وحل محله دون أن يكون للمستخلِف أى قوامة على الخليفة ، وإنما هى خلافة زمانية ومكانية كالوارث والموروث .

(ب) « خلف » بمعنى النائب أو المفوَّض ، ويكون للمستخلِف القوامة على خليفته ، كالوكيل والموكِل .

كقولك : استخلفتُك من بعد زيد . أى جعلتُك خليفة لى بعد خليفتى زيد .

فالمتكلم هو الذى جعل المخاطَب يخلف زيداً فى مكانه ومحله ، وهو الذى جعل المخاطَب خليفة له .

وليس هنالك ما يمنع من انطباق وتحقيق المعنيين فى ذلك ، وهذا ما نشاهده فى الآيات القرآنية التالية [١] :

قال تعالى : ﴿ ... وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى الْخَلْقِ بَصْطَةً ، فَاذْكُرُواْ آلاَءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [٢] .

أى : جعلكم خلفاء له مكان قوم نوح .

ولم يقل « خلفاء قوم نوح » إشارة إلى البُعد الزمنى بينهما ، وخصَّ قوم نوح هنا بالذكر لأخذ العبرة من مآلهم ومصيرهم الذى حل بهم ، حتى لا يغتر قوم عاد بما منحهم اللّه تعالى من زيادة فى الخَلْق ، وبسطة فيه ، مما لم يكن لمثلهم فى زمانهم ، فهم خلفاء اللّه تعالى من جهة بمعنى النائب أو المفوَّض ، كما أنهم خلفوا قوم نوح فى الزمان والمكان ، أو فى الزمان فقط من جهة أُخرى [٣] .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ

---

(١) أبو الأعلى المودودى : الحكومة الإسلامية (مرجع سابق) ص ٨٠

(٢) الأعراف : ٦٩

(٣) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢٣٩
الشوكانى : فتح القدير (مرجع سابق) جـ ٢ ص ٢١٨

فِى الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً ، فَاذْكُرُوا آلاَءَ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (١) .

أى : جعلكم خلفاء له مكان قوم عاد (٢) .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

أى : جعلناكم خلائف لنا مكانهم .

وقوله تعالى : ﴿ ... إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴾ (٤) .

أى : يجعل آخرين خلفاء له مكانهم (٥) .

ففى كل من الآيات السابقة نجد أنها تتضمن « خَلَفَ » بمعنى « الخلْف » ، و« خَلَفَ » بمعنى « النائب » أو « المفوَّض » ، وأن المعنيين يتحققان ويتطابقان فى آن واحد .

ولقد جاءت الإشارة الصريحة فى القرآن الكريم إلى أن الإنسان مُستخْلَف من قِبَله تعالى فى بعض نشاطاته وفعالياته .

قال تعالى : ﴿ آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (٦) .

ولا شك أن النشاط الاقتصادى جزء مهم من الفعاليات الإنسانية فى الحياة على هذه الأرض .

وأن الكثير من نشاطاته الأخرى لا تقل أهمية عن نشاطه الاقتصادى .

ولذلك فمن باب أولى أن تكون فى حكمه .

* * *

---

(١) الأعراف : ٧٤

(٢) أبو السعود : تفسير أبى السعود (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢٤٢

(٣) يونس : ١٤ (٤) الأنعام : ١٣٣

(٥) الزمخشرى : الكشاف (مرجع سابق) جـ ٣ ص ٢١١ (٦) الحديد : ٧